(اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند ابي العباس عبد الله بن المعتزّ . وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء الاسلك بنا شعبا من شعابه وارانا احسن ما قيل في معناه)(٣٧) .

وبعد ان ينقل لنا اخبار هذا المجلس . وما ورد فيه من اشعار القدماء والمحدثين , ورأي ابـن المعتـز فيهـا يختم الصولي الخبر واصفاً علم ابن المعتز في الشعر بقوله (فما احد انصرف من ذلك المجلس الا وقد غمره من بحر ابي العباس في علم الشعر وحسن تصرفه فيه والكلام عليه ما غاض معينه . ولم ينهض الا بعد مازودناه من بره . وملاطفته نهاية ما اتسعت حاله)(٣٨) .

وهكذا نجد ان لابن المعتز موقفا نقديا من البديع والشعر المحدث لايمكن ان يفصل فيه مؤلف من مؤلفاته عن الاخرى . فكلها صادرة عن هذا الموقف . مطبقة لارائه في مناصرة الشعر المحدث . وتبين منهج شعرائه في مناصرة الشعر المحدث . وتبنى منهج شعرائه في التفنن في الصنعة والزخرف اللفظي او المعنوي مشيرا الى افراط المفرطين . كأبي تمام او اخطاء الشعراء في ايرادهم لانواع البديع المقيت .

منهج الكتاب :

قسم ابن المعتز انواع البديع اول كتابه الى خمسة ابواب هي : الاستعار والتجنيس والمطابقة . ورد اعجاز الكلام على ماتقدمها . والباب الخامس هو المذهب الكلامي .

وبعد ان انهى الحديث وشواهده عن هذه الابيات الخمسة اكمل كتابه بعبارة (انتهت ابواب البديع) واشار الى انه الفه سنة اربع وسبعين ومائتين . واول من نسخه منه هو علي بن هارون بن يحيى بن ابي منصور المنجم . واشار ايضا الى انه قد اقتصر بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام . ولا يضيق في المعرفة (فمن احب ان يقتدي بها . ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومـن اضاف من هذه المحاسن او غيرها شيئا الى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره)(٤٠) .

---

(٣٧) حلية المحاضرة ١ / ١٣٥ ـ ١٣٨ تحقيق جعفر الكتاني

(٣٨) نفسه

٤٠) البديع ٦٨٩

وتوحي هذه العبارة بما لايقبل الشك ان ابن المعتز قد اقتصر في تأليفه على ابواب خمسة من البديع ، وان كتابه قد انتهى . ولكنك تفاجأ بعد هذه الخاتمة بسرد لابواب جديدة في البديع عددها ثلاثة عشر بابا هي الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والاعراض في الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم مالا يلزم ، واخيرا حسن الابتداء .

وتبدو هذه الابواب وكأنها جزء ثان للكتاب الا انها اذا قورنت بالابواب الخمسة الاولى وجدت قصيرة عدا حسن التشبيه مما يدل على ان ابن المعتز قد انهى كتابه فعلا بالابواب الخمسة التي تمثل اوسع ابواب البديع ورودا في الشعر والنثر .(٤١) .

ويبدو في الكتاب منهج تبعه ابن المعتز . وان نَد عنه في بعض الابواب يبدأ به بتعريف لضرب الفن البديعي الذي يعرض له ثم يورد شواهده ابتداء من القرآن الكريم فالاحاديث النبوية الشريفة وكلام الصحابة ، فالشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين . ثم يختم كل باب بالمعيب من الشواهد التي اساء فيها اصحابها استخدامهم لمحاسن الكلام . وهذه ايضا يبدؤها باقوال نثرية ثم شعرية .

فبعد ان عرف الاستعارة بدأ بذكر الايات الكريمة التي وردت فيها كقوله تعالى :

(هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب)

وقال :

(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)

وقال :

(واشتعل الرأس شيبا)

---

(٤١) دراسات في الادب طبانة ٢٦١ فما بعدها

وقال تعالى :

(او يأتيهم عذاب يوم مقيم) .

ثم اورد اقوال الرسول (ص) التي وردت فيها استعارات . وقد نص قبل بدء هذا الباب على منهجه في ايراد الاحاديث النبوية . واقوال الصحابة وانه قد تقصد اسقاط اسانيدها عن رسول الله (ص) وعن اصحابه لان ذلك مدعاة للاطالة . ولكنه وعد الا يذكر الا الاحاديث المشهورة وهكذا ذكر في باب الاستعارة قول الرسول (ص) : (خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله . كلما سمع هيعة طار اليها) وقوله (ص) : (ضموا ماشيتكم حتى تذهب فحمة العشاء) وقوله (ص) : (انا لاقبل زيد المشركين) .. ومن كلام الصحابة قول علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) في كتاب له الى ابن عباس وكان عامله على البصرة في بعض كلامه : (ارغب راغبهم . واحلل عقد الخوف عنهم) .. ومن كلام ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) : (ان الملوك اذا ملك احدهم زهده الله في ماله ورغبه في مال غيره .واشرب قلبه الاشفاق . وهو يحسد على القليل . ويتسخط الكثير جذل الظاهر . حزين الباطن . فاذا وجبت نفسه . ونضب عمره . وضحا ظله حاسبه الله فاشد حسابه . واقل غفره)(٤٢)

وبعد ايراده كثيرا من النصوص النثرية المختلفة في الاستعارة بدأ بذكر شواهدها في الشعر مبتدأ بامرىء القيس بقوله :

وليل كموج البحر ارخى سدوله
علي بانواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
واردف اعجازا وناء بكلكل

معلقا عليه بقوله : (هذا كله من الاستعارة : لان الليل لاصلب له ولاعجز ثم يورد شواهد من شعر زهير بن ابي سلمى . فالنابغة . فالاعشى فأوس بن حجر فعنترة ثم مهلهل.. وغيرهم من شعراء الجاهلية. ويورد شواهد اخرى للنابغة الجعدي للخطيئة وابي خراش الهذلي . ولبيد . ومزرد بن ضرار وكلهم من الاسلاميين . ثم يورد شواهد للاخطل وجرير والفرزدق دون ان يفصل بينهم مكتفيا بترتيب الشواهد ومعرفة

---

(٤٢) البديع ٦١٤

القارىء لعصورهم مما يدل على ان في ذهن ابن المعتز منهجا فنيا وتاريخيا في سرد الشواهد فنيا في ايراده الشواهد البديعة للاستعارة الواردة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام اجلة الصحابة والتابعين وكلها شواهد في النثر حتى اذا بدأ بسرد الشواهد الشعرية وضع منهجا تاريخيا لتسلسلها . فالجاهلي ثم الاسلامي . فالاموي وينتقل بعدها الى النصوص الفنية التي وردت فيها الاستعارة عند المحدثين قائلا : ـ

(ومن البديع والاستعارة من كلام المحدثين واشعارهم قول مالك بن دينار : (القلب اذا لم يكن فيه فكرة خرب)(٤٣) ثم يورد خبرا عن المأمون وانه رأى في يد بعض ولده دفترا وسؤاله عنه وجواب ابنه المتضمن استعارة جميلة ... ثم يورد اقوالا لكبار رجال العباسيين من القادة والكتاب والوزراء . او من بعض رسائلهم وكتاباتهم موردا من الكتاب ماوردت فيه استعارة فقط .

وبعد ايراد امثلة بديعة للاستعارة مما ورد في اقوال المحدثين او كتاباتهم يورد شاهداً لاعرابي يدلك على انه من المحدثين وان لم يسمه ثم يذكر شواهد من شعر ابي الشيص . وسليمان بن ابي الجنوب بن مروان بن ابي حفصة وعودة الى شعر ابي نؤاس . واشجع السلمي . والعتابي والنمرى وغيرهم من الشعراء المحدثين مبيناً في بعض الاحيان موطن الاستعارة او شارحاً البيت لتوضيحها حتى اذا اورد قول العباس بن الاحتف :

ولي جفون جفاها النوم فاتصلت
اعجاز دمع باعناق الدم السرب

احسّ ابن المعتز انه من الشواهد الرديئة فانفتح له باب القول في كتابة خاتمة لباب الاستعارة بالمعيب من شواهدها قائلاً بعد البيت المذكور اعلاه :

(وهذا وامثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام وانما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب)(٤٤) .

---

(٤٣) البديع ٦٢٨

(٤٤) المصدر السابق ٦٤٢

وعبارة ابن المعتز هذه تدل على فكر ناقد فاذا كان شاهد العباس بن الاحنف من شواهد الاستعارة الرديئة فأنه سيبدأ بفقرة يورد فيها امثال هذا البيت مما اساء فيه اصحابه ايراد الاستعارة وتحويلها من محاسن الكلام الى ما يمكن ان يعد مأخذا وعيبا عليهم . ولكنه ينبهنا الى عدم اكثاره من الشواهد الرديئة لماله من اثر سيء في نفس المتعلم عكس ما تتركه النماذج الفنية العالية من تأثير بصقل الموهبة وبخلق الاحساس المدرك للجمال الفني والصنعة المحببة . ولكننا نحس في الوقت نفسه انه ما يزال ملتزماً بمنهجه الفني التاريخي في ايراد الشواهد اذ انه يلتزم بذكر النصوص النثرية من اقوال المحدثين ويتبعها باساءات الشعراء المحدثين ايضاً .

اما الباب الثاني من البديع فهو التجنيس : وهو ان تجيء الكلمة تجانس اخرى في بيت شعر وكلام . ومجانستها لها ان تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي الف الاصمعي كتاب الاجناس عليها ..

ثم حصر الجناس بنوعين :

١ . ان تكون الكلمة تجانس اخرى في تأليف حروفها ومعناها . ويشتق منها قول الشاعر :

(ويوم خلجت على الخليج نفوسهم)

٢ . ان يكون تجانسها في تأليف الحروق دون المعنى مثل قول الشاعر :

(ان لوم العاشق اللوم)

وبعد التعريف يورد شاهدين من القرآن الكريم شواهد من شعر اشعار الامويين(٤٥) .

وهكذا يستمر ابن المعتز مع الابواب الاخرى بهذا المنهج الا بعض الاستثناءات الواجبة التي تستطيع ان تجد لها مسوغاً في عدم التزامه بمنهجه السابق . فالباب الخامس وهو المذهب الكلامي لم يتمثل فيه بشواهد من القرآن الكريم او الحديث النبوي الشريف وانما اكتفى بذكر ثلاثة امثلة : احدها قول ابي الدرداء : (ان اخوف ما اخاف عليكم ان يقال علمت فماذا عملت) . والثاني قول الفرزدق :

---

(٤٥) المصدر السابق ٦٤٦

لكل امرىء نفسان نفس كريمة
واخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى
اذا قل من احرارهن شفيعها

والثالث قول الخليفة الراشد عمر لعبد الله بن عباس : (من ترى ان نوليه حمص قال : رجلاً صحيحاً لك . قال : كن انت ذلك الرجل قال : لا ينتفع بي مع سوء ظني في سوء ظنك بي(٤٦) ثم يبدأ بعرض شواهد المحدثين في هذا الباب . ولنا ان نتساءل عن سبب قلة امثلة هذا الباب عند المتقدمين وسبب خلوه من شواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ولمعرفة الاجابة على هذا التساؤل نقرأ فاتحة الباب الذي يقول فيه : (وهو مذهب سماه ابو عمرو الجاحظ المذهب الكلامي . وهذا باب ما اعلم اني وجدت في القرآن منه شيئاً وهو ينسب الى التكلف تعالى الله من ذلك علواً كبيراً)(٤٧) .

فكون هذا المذهب منسوبا الى التكلف مسوغ كاف لتنزيه القرآن الكريم عن وجود امثاله فيه . وكذا الحديث النبوي الشريف واقوال الصحابة ممن عرف بالسليقة الطيعة والطبع الموهوب وممن تنزه كلامهم غالبا عن التكليف الذي تجده اكثر وضوحا عند المتآخرين .

واذا تتبعنا الابواب الثلاثة عشر التي الحقها ابن المعتز بالابواب الخمسة وجدناه لايلتزم فيها التزاما تاما بمنهجه الذي ارتضاه فيما سبق من ايراده النصوص النثرية قبل الشعرية او اتباعه المنهج التاريخي في التمثل بشواهد البديع وفق عصور الشعراء وسنحاول تتبع خطوات ابن المعتز في هذه الابواب : فخلو كثير منها من شواهد القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف واقوال كبار الصحابة والتابعين واكتفاؤه باقوال الشعراء المتقدمين او المتأخرين فقط يمكن ان نطبق عليه المسوغ السابق نفسه الذي وجدناه في باب المذهب الكلامي وهو تنزيه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن بعض المظاهر المتكلفة ولكن اذا صدق هذا المسوغ على جميع ابواب الكتاب الثلاثة عشر فأنه لايصدق على باب حسن التشبيه اذ

---

(٤٦) البديع ٦٨٥

(٤٧) نفسه ٦٨٤ . وقد اشار د . احمد ابراهيم موسى في كتابه الصبغ البديعي ١٣٤ الى ان المتأخرين قد ذكروا امثلة عديدة من القرآن الكريم لهذا اللون منها قوله تعالى ،
(لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا)

لايخفى ما في القرآن الكريم من اساليب التشبيه البديعة التي شغف البلاغيون بابراز وجوها وبيان جمالها . انه خلل في المنهج الذي سار عليه ابن المعتز ونقص في شواهده النثرية اذ لم يتمثل بالايات الكريمة والحديث النبوي واقوال الصحابة في جميع الابواب عدا بابي الالتفات وباب التعرض والكناية(٤٨) .

ومثل هذه المخالفة في المنهج تجدها في الباب العاشر الافراط في الصفة) اذ خالف فيه الترتيب التاريخي لاشعار الشعراء مقحما قول كثير بين شواهد من شعر المحدثين ومقحما أيضاً شواهد من النثر بين شواهده الشعرية . فبعد ذكره لثلاثة ابيات لابي نؤاس في الافراط في الصفة نقل خبرا عن اسحاق الموصلي ان سعدة بنت عبد الله بن سالم لقيت سكينة بنت الحسين صلوات الله عليه بين مكة والمدينة فقالت : قفي يابنت عبد الله . ثم اسفرت عن وجه ابنتها واذا هي قد أثقلتها بالدر وقالت مالبستها اياه الا لتفضحه .

ثم يورد قولا اخر عن امرأة حسناء كانت لاتظهر من بيتها اذا طلع القمر والشمس فقيل لها في ذلك فقالت : اخاف ان تكسفاني(٤٩) . ثم يعود الى ذكر الشواهد الشعرية مع عودة الى شاعر اموي مخضرم. وقل مثل هذا في شواهد باب حسن الخروج التي بدأها بشاهد بشار بن برد الذي قدمه على بيت شعر السموأل بن عاديا . وزهير . وحسان . وشاهد بشار يقع في ثلاثة ابيات يخلص فيها من مخاطبة اخلائه الى وصف بخل مهجو وصفا شخص في صورته اجمل تشخيص وهو قوله : ـ

خليلي من جرم اعينا اخاكما
على دهره ان الكريم معين
ولاتبخلا بخل ابن قزعة انه
مخافة ان يرجى نداه حزين
اذا جئته في الحق اغلق بابه
فلم تلقه الا وانت كمين(٥٠)

وهكذا نجد ابن المعتز غير ملتزم بالتسلسل التاريخي لترتيب الابيات الشعرية كما فعل في الابواب الخمسة الاولى . وغير ملتزم بتقديم النثر على الشعر ايضا مما يدلنا على انه الف القسم الاول بتأن وروية ملك فيهما زمام منهجه مع كثرة الشواهد

---

(٤٨) البديع ٦٨٥
(٤٩) البديع ٧٠١
(٥٠) المصدر السابق ٦٩٢

والامثلة . اما الابواب الثلاثة عشر الاخيرة فيبدو فيها متعجلا من خلال مخالفاته لمنهجه الاول ولقلة الشواهد الشعرية فيه عدا باب حسن التشبيه . ولعل سبب ذلك عائد الى رغبته في اظهار الحجة على من يعيب عليه كتابه بأنه غير جاهل لابواب البديع الاخرى ـ التي حصرها اول تأليفه للكتاب بخمسة انواع فقط لذلك سرد انواعا اخرى ـ على عجل تاركا لمن يريد التعقيب ان يضيف اليها ما يشاء من فنون محاسن الكلام والصنعة .

وهناك ملاحظة اخرى تخص منهج كتاب البديع وتفاوته بين القسمين المذكورين سابقا وهي انه رتب الابواب الخمسة الاولى مراعيا اهميتها من حيث كثرة دورانها على السنة الكتاب والشعراء . وكثرة شواهدها .

اما الابواب الثلاثة عشر الاخيرة فقد بدأ فيها غير ملتزم بمنهجه الدقيق سواء في ترتيب الابواب حسب اهميتها وكثرة ورودها او في طريقة ايراد الشواهد في كل باب . فاوسع الابواب هو الباب التاسع (حسن التشبيه) وحقه ان يكون في الترتيب الاول لكثرة شيوعه . ولعدم خلو ديوان شعر منه وهو امر تنبه اليه النقاد والبلاغيون في اعطائه اهمية كبيرة في ماكتبوه عنه من تفصيلات وشواهد(٥١) .

واذا تتبعنا شواهد كتاب البديع وجدنا ابن المعتز مكتفيا بايرادها في مواضعها الا بعض التعليقات التي توضح رأيه النقدي في فنون البديع او توضح الوجه البياني الذي تمثل بالشاهد لاجله(٥٢) . وقد لايكتفي برأيه في بيان وجه الاستعارة فيستعين برأي احد اللغويين في اصل دلالة الكلمة المستعارة(٥٣) . واكتفى ابن المعتز بشروحه البسيطة وتعليقاته على بعض الشواهد كقوله في باب حسن التشبيه :

(نبدأ بامام الشعراء ـ قال امرؤ القيس :

ومسرودة السلك موضونة
تضاءل في الطين كالمبرد
تفيض على المرء ارداتها
كفيض الاتي على الجدجد

---

(٥١) راجع في هذا مثلا عيار الشعر لابن طباطبا وتفصيله الحديث عن تشبيهات العرب وكتاب نقد الشعر ص ٥١ ، وعده التشبيه احد اغراض الشعر .

(٥٢) انظر مثلا البديع ٦١٨

(٥٣) نفسه ٦١٩ ، وانظر ٦٢٢ ـ ٦٢٣ ـ ٦٢٤ ـ ٦٦٧

وقال :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالي(٥٤)

فقد جعله كما رأينا امام الشعراء في هذا الباب والواقع ان هذا ليس رأي ابن المعتز وحده وانما سبقه اليه معظم النقاد ممن فضل أمرؤ القيس فقد قال الاصمعي في فحولة الشعراء : (اولهم في الجودة امرؤ القيس . له الحظوة والسبق . وكلهم اخذوا من قوله واتبعوا مذهبه(٥٥) .

ومثل تعليقه على شعر ابن مقبل في باب حسن التشبيه وهو قوله (ومن التشبيهات العجيبة)(٥٦) دون ان يوضح وجه الشبه الذي رآه من خلاله عجيبا مكتفيا بفهم القارىء له .

ويقول ايضا معلقا على تشبيه ورد في شعر بشار :

(ومن حسن التشبيه ...)(٥٧)

فكل هذه التعليقات انما هي اقوال نقدية سريعة لم يقف فيها ابن معتز محللا اوجه الشبه او مقارنا مع ابيات مماثلة لها وهذا شأنه في معظم تعليقاته الواردة في كتاب طبقات الشعراء مما لايمكن ان ندخله ضمن التحليل النقدي او الرأي الشخصي الاصيل .

اما الشواهد المعينة التي تمثل بها ابن المعتز فأنه لم يكن بحاجة الى شرحها او بيان مواطن الاستشهاد فيها الا انه علق تعليقات طفيفة كقوله :

(ومن غث الكلام وبارده)(٥٨)

او قوله :

(ومن عجيب الرداءة)(٥٩)

---

(٥٤) نفسه ٧٠٣
(٥٥) فحولة الشعراء للاصمعي
(٥٦) البديع ٧٠٥
(٥٧) نفسه ٧٠٢
(٥٨) نفسه ٦٧٥
(٥٩) البديع ٦٧٣

وقد يكتفي بعبارة (ومن المعيب)(٦٠) وقد يتمثل بشاهد يحس انها من ردىء الكلام ولكنه يريد ان يقدم للقارىء فوائد اهمها تنبيهه على فنون البديع الجميلة ليحتذى حذوها وينبه الى المتكلف منها ليجتنبها .

وهكذا اورد بيت شعر في باب المعيب من المطابقة منبها الى كون الشاعر قد تكلف باساءة جمع الطباق والبديع والاستعارة فيه وهو قوله :

يتيمني برق المباسم بالحمى
ولا بارق الا الكريم يتيمه

فيقول : (وهذا قد جمع على غثاثته بابين من بديع الكلام وهما في هذا الباب وباب الاستعارة)(٦١) .

وكقول منصور بن الفرج :

زدناك شوقاً ولو ان النوى نشرت
بسط الملا بيننا بعداً لزرناك

(وهذا ايضاً قد جمع معنيين من البديع وليس بشيء)(٦٢) وتمثل بالمعيب من الاستعارة بما كتبه بعض اهل زمانه قائلاً : (اطال الله بقاءه منشئاً لك ريح عز لا يعدم هبوبها ومطلعاً لنعمتك شمس نصره يؤمن غروبها) فقال بعد ان اكمل الرسالة : (وفي هذا الباب استعارة وتعقيد ايضاً على بغضه كما ترى)(٦٣) .

وهناك ثلاثة مواطن لتعليقات اخرى لابن المعتز قد يفهم منها أية النقدي في قضية السرقات . فقد علق في الموطن الاول على اخذ ابي تمام لمعنى ورد في الحديث النبوي بقوله (وقد سرقه) فدل على عدم استساغته اخذ الشاعر معناه من الحديث النبوي لان السرقة مقيتة .

اما في الموضعين الاخريين فأنه لم يسمهما سرقة بل سماهما اخذا وهذا يخرج الشاهدين من المعيب كقول الكميت :

ونحن طمحنا لامرىء القيس بعدما
رجا الملك بالطماح نكباً على نكب

---

(٦٠) نفسه ٦٥٨
(٦١) نفسه ٦٨٤
(٦٢) نفسه
(٦٣) نفسه ٦٨٧

واخذه من قول امرىء القيس :

لقد طمح الطماح من بعد ارضه
ليلبسني من دائه ما تلبسا

والطماح في البيتين رجل من بني اسد بعثه قيصر بحلة مسمومة الى امرىء القيس(٦٤) والواقع ان ابن المعتز محق في عدم وصفه قول الكميت سرقة لانه اقرب الى تضمين فكرة معلومة عن مهلك امرىء القيس ، وقد اشار اليها الاخير نفسه فهو مما لا يخفى حتى يلجأ الشاعر الى سرقته .

ولا بد ان نتتبع تعليقات ابن المعتز في غير كتابه هذا لنوضح موقفه من السرقة فهو سيتبناه كثير من النقاد فيما بعد حين يتسامحون في النظر الى هذه المسألة محاولين تخفيف حدة التهمة الموجهة الى الشعراء كما سنجد ذلك عند الامدى والقاضي والجرجاني وغيرهما .

فالاخذ يظهر في استفادة شاعر من معنى ورد عند غيره فيأخذه ويجوده ويجمله فاذا تجاوز الاخذ الى سلب الشاعر الفاظ فكرته عده ابن المعتز سرقة .

فقول يحيى بن علي المنجم :

والشعر صوب العقول يظهر في الـ
ـندى افن الانسان او حكمه

قد سرق في الشطر الاول منه تعبير صوب العقول من ابي تمام وأساء في هذه السرقة لانه اتبعه بما هو ليس بسرقة وانما هو لفظ غث ثقيل كما قال ابن المعتز نفسه . اما قول ابي تمام الذي سرقه يحيى بن علي المنجم فهو اجمل وابدع وهو قوله :

فلو كان يفنى الشعر افناء ما قرت
حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت
سحائب منه اعقبت بسحائب

---

(٦٤) البديع ٦٤٨ ، وانظر ايضاً ٦٧٣

ان جمال الصورة الشعرية التي رسمها ابو تمام في بيته الثاني جعلت ابن المعتز لا يعد يعدها سرقة حين نبه الى اخذ ابي تمام معناه من قول اوس بن حجر الذي يقول فيه :

اقول بما صبت علي غمامتي
وجهدي في حبل العشيرة احطب

نقول ان اجادة ابي تمام اخذ الفكرة واخراجها اخراجاً جميلاً شفع له عند ابن المعتز فلم يعده سارقاً وانما سماه آخذاً . اما يحيى بن علي المنجم فأنه لم يأخذ معنى ولم يستفد من صورة شعرية وانما سرق لفظتي (صوب العقول) واوردها ايراداً سيئاً فعده سارقاً(٦٥) .

ومن الروايات النقدية التي نستطيع ان نتبين فيها رأي ابن المعتز في التمييز بين السرقة والاخذ ماذكر حول معنى ورد عند امرىء القيس يصف فيه لطف الدبيب واخذه عنه الشعراء ولم يسم اخذهم سرقة ـ وذلك انه روى بيت الاخطل :

تدب دبيباً في العظام كأنها
دبيب نمال في نقا يتهيل

وقول ابي الهندى في المعنى ذاته :

ولها دبيب في العظام كأنه
فيض النعاس وآخذة في المفصل

وروى ابن المعتز ايضاً انه ذاكر بهذا امير المؤمنين المعتضد بالله فسأله :
من اين اخذه ابو الهندي ؟ فقال ابن المعتز :
ـ من منصور بن بحر في وصف سيف :

وكأن موقعه بجمجمة الفتى
حذر المدامة او نعاس الهاجع

---

(٦٥) الورقة ٣٦ من كتاب الاوراق للصولي في اخبار المقتدر مخطوط في مكتبة الازهر برقم ٧٦٣٦ اباظة نقلاً عن رسائل ابن المعتز ص ١٦ ـ ١٧ . وانظر رأيه في اخذ اشجع السلمي من موسى شهوات في الاوراق للصولي (قسم اخبار الشعراء) الطبعة الاولى (١٩٣٤ ص ٨٣ ـ ٨٤ وانظر ابن المعتز / خفاجي ٥٣٦ .

فقال له : احسنت فمن اين اخذه الاخطل ؟ فقال ابن المعتز : لاعلم لي يا امير المؤمنين .

فقال : اول الناس احسانا في وصف لطف الدبيب امرؤ القيس :

سموت اليها بعد ما نام اهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

فقال ابن المعتز : من هاهنا والله اخذ القوم اجمعون هذا المعنى واوردوه بالفاظ مختلفة(٦٦)

اما النصوص النثرية التي تمثل بها في كتابه فقد كانت حصة العباسيين فيها أكبر بكثير من حصة الامويين التي تليها في الكثرة ثم اقوال الصحابة فأحاديث الرسول (ص) فالايات الكريمة الى ان نصل الى اقوال الجاهليين التي لم تتجاوز الاثنين فقط . وكل هذا يدلنا على ان معظم شواهده الشعرية والنثرية هي من الادب العباسي المحدث .

وهذا طبيعي لانه نص في البداية على ان المحدثين قد اكثروا من البديع وبعضهم أفرط حتى عرفوا به . ومن هنا ايضا نجده يكثر من التمثيل باشعاره واقواله هو بالذات(٦٧) في ابواب البديع كقوله في باب الاستعارة :

اسقني الراح في شباب النهار
وانف همي بالخندريس العقار
فكأن الربيع يجلو عروسا
وكأنا من قطره في نثارا(٦٨)

ونقل في موضع اخر نصا من كتابه الفصول في باب المطابقة : (وقلت في الفصول القصار : طلاق الدنيا مهر الجنة . غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله(٧٠)

---

(٦٦) فصول التماثيل ٢ ـ ٢١ ط ١٩٢٥
(٦٧) انظر مثلا ٦٤٠ ، ١٥٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧
(٦٨) البديع ٦٤٠
(٦٩) نفسه ٦٧٥
(٧٠) البديع ٦١١

واذا كان موقف ابن المعتز في كتاب البديع يمثل مرحلة نقدية مهمة فأن تتبع آراء ابن المعتز فيه يدلنا على فكر متذوق للادب عارف بمواطن الاجادة والاحسان . ولما كان قصده تصنيف فنون البديع وادراج شواهده الجميلة فأنه لم يأخذه التعصب لهذه الظاهرة الفنية فنبه الى وجود شواهد لم يحسن اصحابها استخدام البديع وهكذا نجده منذ البداية منبها الى قضية عرفها خصوم ابي تمام وانصاره وهي افراطه في الصنعة الفكرية واللفظية مما عد خروجا على عمود الشعر العربي فيقول (ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم يعني بشارا ، وابا نؤاس ومسلما شغف به حتى غلب عليه وتفرع منه ، واكثر منه فأحسن في بعض ذلك واساء في بعض وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف)(٧١)

ويبدو موقف ابن المعتز من ابي تمام موقف الوسط بين آراء المتعصبين له او عليه وهذا ماسنجده ايضا في رسالة سماها بـ (محاسن ابي تمام ومساوئه) . ولكننا في الوقت نفسه اذا تتبعنا شواهد ابي تمام في كتاب البديع وجدنا ابن المعتز متمثلا بالجيد منها اكثر من تمثله بالشواهد السيئة فقد تمثل بخمسة واربعين شاهدا لابي تمام لم يضع في المعيب منها الا شاهدا واحدا هو قوله في باب المطابقة :

فـيا ثـلـج الـفؤادِ .....

.....(٧٢)

وقوله في باب المذهب الكلامي :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن
يرضى المؤمل منك الا بالرضى

فهو لم يجعل هذا البيت ضمن المعيب من الشواهد الذي يختم بها كل باب من الابواب الخمسة ، وانما اكتفى بنقل قول لاسحاق بن ابراهيم اذ بلغه انه قال لأبي تمام حين رآه ينشد هذا البيت وأمثاله عند الحسن بن وهب (يا هذا شددت على نفسك) اي اثقلت عليها وكلفتها اكثر مما تطيق . اما قول ابي تمام الذي تمثل في باب التجنيس :

---

(٧١) نفسه ٦٧٦

(٧٢) نفسه ٦٧٦

جلا ظلمات الظلم عن وجه امة
اضاء لها من كوكب الحق عاقله

فهو لم يذكره في باب المعيب وانما تمثل به لبيان التجنيس البسيط وهو تجانس الكلمات في تأليف الحروف دون المعنى . كما انه نبه الى ان ابا تمام سرق معناه من قول النبي (ص) (الظلم ظلمات)(٧٣) .

اما بقية شواهد ابي تمام فيبدو من خلال تمثله بها انه معجب بصنعته مولع بتفننه فهو يعلق على احد ابياته التي تمثل بها في باب التجنيس وهو :

سعدت غربة النوى بسعاد
فهي طوع الاتهام والانجاد

قائلاً (هذا من الابيات الملاح)(٧٤) وان ابا تمام تلا هذا البيت بأبيات انتقل فيها الى المديح مع ايراده الكلمات المتجانسة في كل بيت تقريباً .

فموقف ابن المعتز تجاه ابي تمام موقف الاديب المتذوق لمواطن الابداع والجمال العارف اوجه الابتكار التي اولع بها ابو تمام ولكنه في الوقت نفسه عاش فترة كثرت فيها آراء النقاد المختلفين تجاه هذا الشاعر المجدد فتلمس اسباب الحملة التي شنت ضده فوجدها في افراطه في البديع (تلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف) .

ان متابعة آراء ابن المعتز في ابي تمام تدلنا على موقف الناقد الذي يحاول ان يكون موضوعياً . فلا يغلبه الهوى . ولا يسيره التعصب الاعمى فيحكم على الشاعر من خلال اساءات معينة يتبعها او احسان يبهره فيصم اذنيه عن كل ما يخالفه . ان الناقد الموضوعي لا يحكم على الشاعر من خلال مآخذه او مساوئه فقط فذلك امر لا يخلو منه شعر شاعر . وانما ينظر الى مجموع اشعاره . فأن كانت الكثرة الغالبة هي لصالح الشاعر حكم له بالاجادة والتفوق. هكذا هو الحال مع ابي تمام الذي حاول ان يجدد في المعاني الشعرية . وان يبتكر الصور والاخيلة فعمد الى الالفاظ ليمنحها حياة جديدة ودلالات ما عرفت بها من قبل فأساء في بعضها واجاد في الاخرى غاية الاجادة . وطريق الابداع محفوف دائماً بالعثرات والمعوقات . فاذا

---

(٧٣) نفسه ٦٤٥

(٧٤) البديع ٦٥١

كان ابو تمام قد اساء في بعض محاولاته الابداعية فأنه استطاع ان يشق طريقه فعلاً في طريف الابداع الذي عرفه له معاصروه ، ومن اتى بعده ، ومن ثم فلا نستطيع ان نصف آراء ابن المعتز في ابي تمام بالتناقص . ولا يمكن ايضاً ان نوافق على ان يكون ابن المعتز قد غير رأيه في ابي تمام الذي ابداه في رسالة (محاسن ابي تمام ومساوئه) وانه غيره في طبقات الشعراء بحجة ان الاخير يمثل المرحلة المتطورة والمتأخرة في حياة ابن المعتز الفكرية كما ذهب الى هذا د . احسان عباس(٧٥) .

لقد الف ابن المعتز كتاب البديع سنة (٢٧٤ هـ) والف طبقات الشعراء سنة (٢٨٠ هـ) على رأي د . احمد عبد الستار فراج ، او ما بين سنتي (٢٩٣ ـ ٢٩٦) على رأي المحققين اللذين سبقا الى تحقيقه وهما محمد اقبال . وعبد المنعم خفاجي . اما رسالته في محاسن ابي تمام ومساوئه فلا نعرف زمن تأليفها . ولم يشر ابن المعتز نفسه اليها في كتابيه السابقين ولكننا نحاول هنا ان نتتبع آراء ابن المعتز في هذا الشاعر من خلال مؤلفاته الثلاثة :

١ . فكتاب البديع بما اورد فيه من شواهد لابي تمام يدلك على موقف المعجب بهذا الشاعر الملتزم بمنهجه الفني في البديع واساليبه ولم يتمثل الا بالشواهد الجيدة من اشعار ابي تمام . واما المعيب فهو قليل اذا قورن بما اعجب به ابن المعتز . فهو اذن لاينكر استعماله البديع وانما ينكر افراطه فيه) . وقد ذكر هذا الرأي ايضاً في كتاب طبقات الشعراء حيث قال معدداً الشعراء المحدثين الذين اولعوا بالبديع .

(مسلم بن الوليد اول من وسع البديع لان بشار بن برد اول من جاء به . ثم جاء مسلم فحشا به شعره . ثم جاء ابو تمام فافرط فيه وتجاوز المقدار)(٧٦) .

وهذا يدلك على ان موقف ابن المعتز من ابي تمام واحد في الكتابين المذكورين اما رسالته في محاسن ابي تمام ومساوئه فهي تمثل مرحلة مهمة في تاريخ النقد كان سببها اشعار ابي تمام نفسها انطلق فيها ابن المعتز من فكر موضوعي يدل على قدرته على الاحاطة بنتاج الشاعر كاملاً وذكر مساوئه ومحاسنه دون ان يأخذه التعصب الى ظاهرة دون اخرى وان بدا في بعض الاحيان منفعلاً في تعليقاته في بعض الشواهد السيئة .

---

(٧٥) تاريخ النقد ١١٨

(٧٦) رسائل ابن المعتز ١٦

هذه الرسالة لم تصل الينا كاملة وانما تمثل بجزء منها المرزباني والتوحيدي وكلاهما تمثل بالاساءات فقط . فاما المرزباني فطبيعة كتابه (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) الذي اورد فيه جزء من رسالة ابن المعتز هذه . طبيعة موضوع هذا الكتاب تقتضي التمثل بالمعايب فقط . اما مواطن الاجادة فهي خارجة عن منهج الكتاب ومادته ويبدو ان التوحيدي نقل عنه بعض هذه النصوص . ولو وصلت رسالة ابن المعتز كاملة لافادتنا فائدة كبيرة في معرفة الخطوط النقدية التي سار عليها في تتبع محاسن ابي تمام ومساوئه معاً ولكن مقدمة هذه الرسالة وصلت الينا وهي كما اوردها المرزباني :

قال عبد الله بن المعتز في رسالة نبه فيها الى محاسن شعر ابي تمام ومساوئه (ربما رأيت في تقديم بعض اهل الادب الطائي على غيره من الشعراء افراطاً بينا . فأعلم انه اوكد اسباب تأخير بعضهم اياه عن منزلته في الشعر لما يدعوه اليه اللجاج)(٧٧) .

ان تحليل هذا النص يدلنا على ان ابن المعتز ما يزال على موقفه الذي بدا لنا في كتابه البديع . وهو موقف المعجب بمجموع شعر ابي تمام بما فيه من مساوىء واخطاء لاتقلل من قيمة مجموع اشعاره الجيدة .

ونرى أن رأي ابن المعتز في هذه الرسالة هو رأيه نفسه الذي التزم به خلال ما كتبه عن هذا الشاعر . فأول فقرة في النص السابق تدلنا على انه ينكر رفض تقديم ابي تمام على غيره من الشعراء . ويرى ان تقديمه ليس مبالغة او افراطاً .

(ربما رأيت في تقديم بعض اهل الادب الطائي على غيره من الشعراء افراطاً بينا)(٧٨) مما يدلنا على انه مع من قدم ابا تمام على غيره . والعبارة التي تليها يؤكد فيها ابن المعتز ان اهم اسباب معارضة اشعار ابي تمام او رفضها هو التعصب واللجاج مما يدل على انه يرفض تأخير مرتبة هذا الشاعر ويعد الطعن بشعره وشاعريته تعصباً ولجاجاً وقد اوجز رأيه صراحة بقوله :

(فأما قولنا فيه فأنه بلغ غايات الاساءة والاحسان فكأنما شعره قوله :

---

(٧٧) الموشح ٢٧٧ . البصائر والذخائر للتوحيدي ٢ / ٦٩٨

(٧٨)نفسه وقد نشر خفاجي بعض هذه الرسالة في رسائل ابن المعتز ص ١٩ . وانظر بعض ما تمثل به الامدى في الموازنة في مواضع متعددة . ص ١٩ ، ٢٥ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٢ – ١٢٨ .

ان كان وجهك لي تترى محاسنه

فأن فضلك بي تترى مساويه

وهذا الحكم يشبه الى حد ما رأى البحتري في ابي تمام الذي اعجب به ابن المعتز نفسه واورده في طبقات الشعراء وهو قوله :

وقد انصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه . وذلك ان البحتري لا يكاد يغلظ لفظه انما الفاظه كالعسل حلاوة فاما ان يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات بل يغرف من بحره)(٧٩)

واذا كانت المحاسن التي ذكرها ابن المعتز لم تصل الينا ولم يقتبس منها فلا بد اذن ان نتتبع الشق الثاني من الرسالة المتعلق بالمساوىء وفيه يجب التنبيه الى ان ابن المعتز هنا ينقل معظم ماقاله خصوم ابي تمام . ورأيه غالبا مع هؤلاء الخصوم في هذه الابيات التي لم يمنعه اعجابه بأبي تمام ان يقر بمحاسنها . فقد بدأ يذكر الاشعار التي ذكرها خصوم ابي تمام وبينوا معايبها وسنحاول ان نصنف هذه المعايب باحثين عن تعليق ذاتي لابن المعتز يمكن ان ينسجم مع منهجه النقدي الفني الذي التزم به في مؤلفاته الاخرى .

من ذلك تتبعه الابيات التي اساء فيها ابو تمام الوصف مديحا او هجاء او غزلا فمن المديح ماعابه النقاد على ابي تمام وهو قوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها

اذا لم يعوذها بنغمة طالب

وابن المعتز ينكر ايضا هذا القول الذي اراد به ابو تمام المديح فأساء فعطايا ممدوحه تكاد تجن في انتظار طالب لها . ومثلما يعوذ المجانين بالرمز والاحراز لتهدأ سورة جنونهم فأن ممدوحه يعوذ عطاياه باسماعها نغمة طالب . وهنا يعلق ابن المعتز على البيت تعليقا ساخرا :

(ولم يجن جنون عطاياه انتظارا للطلب ؟ يبتدي بالجود فيستريح)(٨٠)

---

(٧٩) طبقات الشعراء ٢٨٦

(٨٠) الموشح ٢٧٧

ومما عيب من مدائحه قوله في مدح ابن الحميد بن جبريل حين اراد ان يصف جوده ونخوته وانه عدته في هذا الزمان وملجؤه ومعينه فجعله طبيبا :

شكوت الى الزمان نحول جسمي
فأرشدني الى عبد الحميد

ومن اساءته في المديح وصفه ممدوحه بالتنين :

ولى ولم يظلم وما ظلم امرىء
حث النجاء وخلفه التنين

يريد بالتنين ممدوحه الافشين فعلق ابن المعتز على هذا الوصف تعليقا يدل على حسن ذوقه ورهافة حسه في اختيار الالفاظ :

(فلو كان اجهد نفسه في هجاء الافشين هل كان يزيد على ان يسميه تنينا ولما سمعت احدا من الشعراء شبه ممدوحا بشجاعة ولا غيرها(٨١) .

مما ذكره من معايب هجاء ابي تمام مايتعلق بالصور المبتذلة التي وردت في هجائه وهي اقرب الى هجاء العوام وشتائمهم كقوله :

والله لو الصقت نفسك بالغرى
في كلب لاستيقنت الا تلصق

قائلا : فأي شيء هذا من هجاء الفحول . ولو تهجت به الحاكة لما امضت)(٨٢) وبعد ان اورد شواهد اخرى من اساءاته في الوصف استطرد الى مقارنتها بابيات للاخطل عدها العلماء معايب عليه وهي لاتقاس بشيء من اساءات ابي تمام فيقول :

(وقد كان الناس قبلنا ينكرون على الشاعر اقل من هذه المعايب حتى هجنوا شعر الاخطل وقدموا عليه بثلاثة ابيات لم يصب فيها وهو شاعر زمانه سابق ميدانه من ذلك قوله :

---

(٨١) الموشح ٢٧٧
(٨٢) نفسه

لقد اوقع الجحاف بالبشر وقعة
الى الله منها المشتكى والمعول

فانكروا عليه في هذا البيت مااظهر من الجزع وعظم من فعل عدوه به وقوله :

بني امية ان ناصح لكم
فلا يبيتن فيكم امنا زفر

فعظم قدر عدوه . ومن يهجوه حتى خوف الخليفة منه . وبعد ان ذكر شاهدا ثالثا للاخطل قال : ـ

(فكيف نجيز للمحدثين مع تصفحهم لاشعار الاوائل وعلمهم بها مثل هذا الجنون)(٨٣) .

ومن الشواهد التي تمثل بها لبن المعتز على ماعيب من غزل ابي تمام شواهد اخفق فيها ابو تمام في اختيار معانيها لعدم ملاءمتها معاني الغزل وما يتطلبه من الرقة والاحساس المرهف كقوله : ـ

بنفسي حبيب سوف يثكلني نفسي
ويجعل جسمي تحفة اللحد والرمس

فقال ابن المعتز : اراد ان يتدامث فازداد من البغض(٨٤) .

وعاب على ابي تمام صورة وردت في غزله لاتنسجم مع غزل حضري رقيق وهي تشبيهه نفسه بالكلب، وهو تشبيه غير لائق بالغزل او غيره حيث قال واصفاً هجر الحبيب :

ومن قد شفني فصبرت حتى
ظننت ان نفسي نفس كلبه(٨٥)

وبعد ان يعدد شواهد اخرى من غزله الذي بعد فيه عن الرقة والدماثة وما يتطلبه الغزل من اللين والرفق معلقا عليها جميعا بقوله :
(فهذا وامثاله يفضح نفسه ويستغني عن وصفه)(٨٦) .

---

(٨٣) الموشح ٢٩٩
(٨٤) الموشح ٢٨٢
(٨٥) الموشح ٢٨٣
(٨٦) الموشح ٢٨٦

وهناك مطاعن اخرى يمكن ان يجمعها رابط واحد وهو ماعيب على ابي تمام من افراطه في استخدام البديع. وطلبه الاستعارات الغريبة مما اوقعه احيانا في الثقيل البغيض منها مع ابداعه في الكثير من قصائده واشعاره. وقد مرت بنا اشارة ابن المعتز في كتاب البديع الى افراط ابي تمام في البديع. الا انه تتبع في هذه الرسالة بعض شواهد الشعر التي لم يوفق فيها ابو تمام في ايراد طباقها او جناسها كقوله : ـ

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد
وعاد قتادا عندها كل مرقد
لعمري لقد حررت يوم لقيته
لو ان القضاء وحده لم يبرد

فعلق عليه بقوله : (فلم تخرج المطابقة ها هنا خروجا حسنا ولا تحسن في كل شيء). يريد جمعه بين حررت ويبرد. فهما وان كونا طباقا الا انهما أساءا الى المعنى العام ولم يجملاه.

وقوله :

لو لم تدارك سن المجد من زمن
بالجود واليأس كان المجد قد خرقا

فقوله ـ سن المجد ـ من البديع المقيت.

اما قول ابي تمام في افتتاحية لاحدى قصائده فقد وصفه بأنه من الابتداءات المذمومة وهو قوله (خشنت عليه اخت بني خشين). وبين ابن المعتز ان هذا التجنيس غير لطيف وغير موفق لرقة الغزل ونعومته وانما اوقعه في ذلك محبته للتجنيس وهو بهجاء النساء اولى(٨٧).

وشواهد ابن المعتز في معايب ابي تمام لاتختلف عن مواقفه في كتاب البديع الا انه حين بين سبب عدم استحسانه لبعض صور البديع ـ في هذه الرسالة ـ بدأ بعيدا عن الموضوعية والدقة في الاحكام. حين علق تعليقات قاسية فيها الشيء الكثير من السخرية والتحامل والانفعال الذي يبعده عن كونه ناقدا رزينا غير متسرع باصدار احكامه النقدية كقوله منكراً استعارة ابي تمام الشيب للفؤاد في قوله : ـ

---

(٨٧) الموشح ٢٧٩

شاب رأسي وما رأيت مشيب الـ
رأس الامن فضل شيب الفؤاد

فيا سبحان الله : ماقبح مشيب الفؤاد وما كان أجرأه على الاسماع في هذا وامثاله)(٨٨) . اما استعارة ابي تمام الاخدعين للزمن وغيرها فهي استعارة غير مقبولة في نظره . ووافق فيها معارضيه الذين سخروا من هذا الاستعمال الجديد للاخادع وعدوه عيبا من عيوب الاستعارة او استخدام الالفاظ في غير مواضعها ومدلولاتها كقول ابي تمام : ـ

وضربت الشتاء في اخدعيه
ضربة غادرته عودا ركوبا

وقوله :

سأشكر فرجة اللبب الرخي
ولين أخادع الزمن الابي

وقوله :

ذلت بهم عنق الخليط وربما
كان الممنع اخدعا وصليفا

فيقول ابن المعتز بعد هذه الشواهد متمثلا بآراء معاصريه (فاكثر من ذكر الاخادع . وقال بعض اصحاب الهزل : وقد انشدته هذه الآبيات ماكان احوجه الى ان يعاقب في اخدعيه على هذا الشعر . وبلغني ان اسحاق بن ابراهيم المغني سمعه ينشد شعره فقال : ياهذا لقد شددت الشعر على نفسك .(٨٩)

تسعون الفا كآساد الثرى نضجت
اعمارهم قبل نضج التين والعنب

---

(٨٨) نفسه ٢٨٢
(٨٩) نفسه ٢٨٢

ووصفه بأنه من خسيس الكلام . والغريب ان يكون رأى ابن المعتز رفض هذه الاستعارة التي كنا نتوقع فهمه لها اكثر من فهم المعاصرين لها لانها تتعلق بقضية تمس الخليفة نفسه الذي قاد جيوش الاعداء في معركة عمورية غير مصغ للدعاية التي حاول الاعداء بثها بين صفوف المسلمين وهي ان بلادهم لن تفتح قبل موسم نضج التين والعنب وابو تمام في استخدامه لهذه الاستعارة يحمل البيت هذا المدلول النفسي فيما يسمى بالدعاية المضادة لجيوش المسلمين . والتي اسكتها انتصارهم على الاعداء وعدم سماعه لخرافاتهم . وقد دافع الصولي عن هذا البيت وعده من محاسن شعر ابي تمام.افالتين والعنب ليسا من خسيس الكلام لانهما قد وردا في القرآن الكريم (٩٠) ويبدو ان ابن المعتز قد تابع آراء غيره في هذا البيت لانه قال قبل ايراده (وقد سبق الناس الى عيب هذا البيت قبلى)

وقد اشرنا من قبل الى ميل ابن المعتز الى التأني في اختيار الالفاظ والتعابير والتفنن في الصور والاخيلة فلاعجب اذا من ايراده الشواهد التي عيبت على ابي تمام لكونها غريبة مستثقلة او وحشية بدوية غير موافقة للذوق الحضري الرقيق كأستعمال ابي تمام للجفلى . والنقرى وهما من الفاظ البدو فيقول : ـ

(وهذا من الكلام البغيض والمستكره من البدوي فكيف به اذا جاء من ابن قرية متأدب)(٩١) .

واذا كان هناك شعراء قد اوردوا الفاظا اعرابية غريبة في اشعارهم . فلانهم مثلوا حياتهم الموغلة في البداوة واستعملوا مفرداتهم التي تصور حالهم وتنسجم مع موضوعاتهم . اما اذا اوردها ابو تمام فلا بُدَّ ان تغلب عليه فيقول ابن المعتز :

(ومن استعمال الغريب الذي كان يستبشع مثله من العجاج ورؤبة قبله وهو يصف ظبية ..) وابن المعتز يصرح بأنه لايعيب استعمال هذه الالفاظ الغريبة على جميع الشعراء . ولكنها تحسن اذا استعملها ابن بيئتها . وقد تثقل حتى في استعمال الاخير اذا قرعت اسماع قوم ماعهدوها ولا الفوها . ومن هنا علق على قول لابي تمام استعمل فيه لفظتي القاصعاء والناقفاء قائلا :

---

(٩٠) نفسه

(٩١) اخبار ابي تمام ص ٣٠ فما بعدها

(ولم نعب من هذه الالفاظ شيئا غير انها من الغريب المصدود عنه . وليس يحسن من المحدثين استعمالها لانها لاتجاور بامثالها . ولا تتبع اشكالها فأنها تشكو الغربة في كلامهم)(٩٢)

اما ما يتعلق بمعايب ابي تمام الشعرية التي سميت بالسرقات فقد اوضحنا رأى ابن المعتز بها من خلال كتاب البديع وهو رأى يتلخص في سماحه اخذ الشاعر عن آخر اذا كان الاخذ في حدود الاقتباس للمعنى وتجويده . اما اذا اخذ اللفظ نفسه مع اساءة في ايراده فذلك عيب وسرقة ولانريد ان نكرر الشواهد التي اوردها ابن المعتز الا اننا لابد ان نقف عند رأى غريب وارد في هذه الرسالة يتعلق بالسرقات فيعد ان اشار الى اساءة ابي تمام في بعض سرقاته واحسانه الاخذ في الاخرى بدا متعنتا ومتهما اتهاما فيه شيء من التحامل الكبير على ابي تمام قائلا :

(ولما نظرت في الكتاب الذي الفه في اختيار الاشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وانما سرق بعض ذلك فطوى ذكره . وجعل بعضه عدة يرجع اليها في وقت حاجته . ورجاء ان يترك أكثر اهل المذاكرة اصول اشعارهم على وجوهها . ويقنعوا باختياره لها فتغبى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقته حتى يزيد في اضاءة المعنى او يأتي بأجزل من الكلام الاول . او يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به وينظر الى ماقصده نظر مستغن عنه لافقير اليه)(٩٣)

فالقسم الاول من هذه الفقرة يحمل الاتهام الباطل لان ابا تمام اذ كان قد تعمد اخفاء كثير من الاشعار التي سرق معانيها فأن امره لابد ان يفتضح اذا طلع عليها عن طريق اخر فما فائدة ابعادها من اختياراته او لم يطلع عليها ابن المعتز نفسه .

اما القسم الاخير من الفقرة فيوضح فيه ابن المعتز رأيه في السرقات الذي لايختلف عما اوردناه في رأيه فيها في كتاب البديع .

هذه هي نماذج لشواهد الاساءة في اشعار ابي تمام كما ذكرها ابن المعتز وهي لاتمثل رأيه وحده . وربما كانت اقل ماعيب على ابي تمام لكثرة ما وجه اليه من نقد وطعن . ولعل ابن المعتز اراد جمعها في هذه الرسالة لمقابلتها باحسانه الذي وصفه ايضا بأنه (بلغ غاية الاجادة والاحسان) ليخفف من الحملة الموجهة اليه .

---

(٩٢) الموشح ٢٨٤

(٩٣) الموشح ٢٨١

كما تخفف هذه المساوىء من مبالغة انصاره وافراطهم في تقديمه على سائر الشعراء . فقد قال بعد ان اورد جملة من شواهد الاساءة :

(وقد اسقطنا من معايب شعره شيئا كثيرا لم نثبته في رسالتنا ، وقصدنا في ذلك مايبهر الحجة ، ويفل حد النصرة)(٩٤)

ولو وصلت الينا شواهد احسان ابي تمام في هذه الرسالة بالذات لعرفنا من خلال تعليقات ابن المعتز رأيه الاجمالي والاخير في هذا الشاعر . ومع ذلك فأنك تجد هذا الرأي في كتابه ـ طبقات الشعراء ـ الذي ترجم فيه لابي تمام ولم يذكر له الا المحاسن فهو موقف لا ينفرد فيه ابن المعتز ازاء ابي تمام وحده ليقال انه غير موقفه منه(٩٥) بل هو وقف موحد ازاء جميع الشعراء اذ بدا ابن المعتز مجاملا لهم في تراجمهم التي اوردها في كتابه ، لانه نص منذ البداية بأن غايته من هذا الكتاب تقديم النصوص الجيدة من اشعار المحدثين ، وبيان ابداعاتهم و ابتكاراتهم ، لذا فلا مجال لذكر مساوىء ابي تمام وغيره ، لانه اختار منهجا هو ذكر (ما وضعه الشعراء من الاشعار في مدح الخلفاء والوزراء والامراء من بني العباس ليكون مذكوراً عند الناس)(٩٦)

اذا كانت النظرة الموضوعية تقتضي النظر الى مجموع شعر الناس فأن حكم ابن المعتز يكون لصالح ابي تمام لانه نظر فعلا الى هذا المجموع في كتاب ـ طبقات الشعراء ـ وتمثل باوائل بعض قصائده مبتدأ بقوله :

(ومما يستملح من شعره ـ وشعره كله حسن ـ داليته في المأمون التي اولها :

كشف الغطاء فأوقدي أو اخمدي

وهي اشهر من الفرس الابلق ، وكذلك كل ما نذكره من قصائده ها هنا فأنا نقتصر على ذكر اوائلها كقوله ..)(٩٧)

ان النظرة الى مجموع شعر الشاعر هو الذي دفع ابن المعتز في هذا الكتاب الى قوله :

---

(٩٤) نفسه ٢٨٤

(٩٥) طبقات الشعراء ٢٨٤ ـ ٢٨٥

(٩٦) طبقات الشعراء / ١٨

(٩٧) نفسه ٢٨٦

(ولو استقصينا ذكر اوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابتا هذا بذلك . وان لم نذكر منها الا مصراعا . لان الرجل كثير الشعر جدا ويقال ان له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة) . . .

ولكي يمنع ابن المعتز مايمكن ان يفهم منه موقف معارض لموقفه السابق في ذكر محاسن ابي تمام ومساوئه نراه يقدم مسوغا للحكم عليه بالاجادة من خلال الجيد الكثير الذي لا يقاس بالقليل الردىء الذي يؤخذ عليه فيقول : ـ

(وأكثر ماله جيد . والردىء له انما هو شيء يستغلق لفظه فأما ان يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا وقد انصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه . وذلك ان البحتري لا يكاد يغلظ لفظه . أنما الفاظه كالعسل حلاوة فأما ان يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات بل يغرق في بحره)(٩٨)

هذه هي اهم آراء ابن المعتز النقدية . وقد وجدناها منصبة غالبا على اهم قضية شغلت بال النقاد والشعراء المحدثين وهي ماعرف عن الشعراء العباسيين من عنايتهم بلغتهم الشعرية وتأنقهم في اختيار الفاظهم . والباسها حلل البديع من جناس وطباق واستعارة وقد وجدنا ان كون ابن المعتز شاعرا له اثره الكبير في كونه ناقدا مهتما بقضية فنية تبناها هو في اشعاره وادركها بذوقه الرفيع في اشعار معاصريه . ومن سبقهم وتتبعها بالنظرة الفاحصة . واطلاعه الواسع . وبذا ينفرد بحثه في البديع يميزه الذاتية والموضوعية اللتين استقاهما من كونه شاعرا متبنيا هذا الاتجاه الفني الحديث محكما ذوقه فيما يكتب ويختار من الشواهد وفيما يصدر من احكام وتعليقات عليها . عدا بعض الوقفات النقدية التي نبهنا فيها على غلوه او مجاراته لاراء غيره وهي شطحات لا يخلو منها اديب او ناقد ..

---

(٩٨) طبقات الشعراء ٢٨٦